

حُرْمَةُ الْقَبْرِ

بقلم أسيدار جوددورف
للأستاذ محمد لطفي جمعة

أسود مشبع بالبترول والهباب فتخرج من الدخان أكثر مما تبعث من ضوء . وكنا من الضيق والضنك بحيث كانت أي تخشى على عفة أخواني من إخوتي ، وكانت تمنعم دائماً قائلة : « إن اختلاط الجنسين خطر » ولذا صممت أن تكون هي ورجلها حجاً باحجراً بين البنات والصبيان من أسرهما

البائسة

فسأله القاضي : ألم تكن تلك المرأة تخشى على عفة الصبيان من بعضهم بعضاً وكذلك البنات ؟ فأطرق التهم وقال دون أن يرفع بصره إلى وجه القاضي :

— لم يكن الفساد قد وصل إلى هذا الحد في القرى . ولا تنس أن هذا التاريخ يرجع إلى أربعين عاماً . فنظر إليه القاضي وقال : استمر ... !

— وكان أبي — تممده الله برحمته — مدمن الشرب فكان يضيع كل ما يربحه وتربحه أي وإخوتي في الحانة حتى اضطرت على حدائتي سني أن أعمل عند صانع أحذية في المدينة المجاورة ، وكان هذا الرجل — صانع الأحذية — قاسياً غاشماً فكان يماقيني أحياناً بالطنن بعديته التي يقطع بها الجلد وطوراً بالجلد بسوط من عصب الثور المفتول . ولم يكن أحد يفكر في إنقاذي من غياله أو رفع شكواي إلى الشرطة لأن رجالها — رجال الشرطة —

تعريف بالقصة

أسيدار جوددورف كاتب روسي منفي في لندن وهو ضد البولشفيك ، بل عدو لدود للثوريين وهو من أكبر خصوم ستالين ولذا نراه يصور المشاعية (كوميونزم) تصويراً قاتماً ، ويمزج قصصه التي تنشرها مجلات أرجوسي وسترايد وبلاكورد وماي ريفو بالعشق والاجرام والفلسفة . ومعظم التصاوير التي يلونها بألوان زاهية أو مظلمة منترعة من الحياة . ولذا آثرنا نقل هذه القصة التي تنطوي على محاكمة متهم ذي شخصية نادرة المثل . يشرح حاله بما لم يأت به أعظم مدره في الدفاع عن مذنب بريء . ولما كانت تهمته تدور حول جريمة انتهاك حرمة المقابر فقد جعلها المؤلف عنواناً لقصته

نظر القاضي إلى التهم نظرة جد وأمي ، وقال له : أيها التهم هل لديك ما تقوله مضافاً إلى الدفاع الذي فاه به محاميك فأنت بلا ريب آخر من يتكلم فأجال التهم نظيره في الحاضرين ثم شد على نفسه كمن يمتزم أن يقوم بأعباء حمل ثقل أو يحط عن كاهله عبئاً وقال :

نعم أيها القاضي ! سأنتكلم ! لقد لفظتني الحياة من صلب فلاح خشن ، ورحم امرأة من بني جلدته وأهل طبقته ، في قرية من أقصى قرى الريف البولوني ، منذ خمسة وخمسين عاماً . وكنت وأبي

وأمي وإخوتي وهم أربعة وأخواتي وهن خمس نعيش جميعنا في قاعة صغيرة ضيقة لا نافذة لها ، سوى تلك التي فتحت في جدار مشترك بيننا وبين الأنعام ، وعلى هذه النافذة أو الجدار الذي كان قاعدة لها توضع في كل عشية « مسرجة » من التنك^(١) لها شريط

(١) معدن أبيض رقيق يستخرج من شواطئ بحيرات أمريكا ويعرف هنا باسم الصفيح

نخرأ . خستت أيها الوغد المخمور . إنني أقتلك قبل أن تفكر في هذا . فضحك والدي — رحمه الله — لأنني لا يحق لي أن أسبه أو أنسى الانتساب إليه ، إذ ألم أكن ولده ، فابن من أكون ؟ أفضل أن أكون ابن أكبر سكير في العالم على أن أكون مجهول الأب ، وثئن أعدت شتائم أي في حقه ، فلما أن تشتمه ما شاءت لأنها زوجته . أما أنا فإله يغفر لي ولا يسمح لي باقتراف هذا الجرم .

و كنت عند ذلك في الرابعة عشرة من عمري وقد تعلمت مبادئ القراءة والكتابة عند قسيس القرية الاب جرنجو ارسينكفيز ، فذهبت إليه من الغداة وشكوت له كل شيء ، وقلت له إن والدي يفكر في بيعنا صفقة واحدة كالواشي فتوسط في توظيفي عند يهودي يخرج ماله بالفوائد ويعمل بالربا فلم أطق سماع تهديدات البؤساء والبائسات من عملائه وتركته لأدخل في بنك لبيع الأراضي بالتقسيط وبناء المنازل الصغيرة للمستخدمين ، وقد أتقنت الكتابة والحساب في ذلك المصرف وتعرفت بكثيرين من رجال المال والأعمال ، فنقلتني إدارة المصرف إلى مدينة ثيلنا بترقية . وبعد عام ونصف عام كنت أثناءها أبعث بمعظم راتبى إلى أسرتى ، أفلس البنك فجأة وانقطعت مصادرى ومواردى وعجزت عن دفع أجرة غرفتى وظنت صاحبة الدار بي الظنون ، فأغلقت باب الغرفة من الخارج وجعلتني حبيسا بها ، فلم أذق طعاما ولا شرابا ولم أقض حاجتى . ولما كان سقف الغرفة مصنوعا من الآجر المرصوف رصفا بغير بناء فقد تمكنت من الفرار من أعلى الدار بأن خرقت رأسها . . . أما الأيام والليالي التي قضيتها بدون طعام ، فلا يمكنني أن أحصر

كانوا يصلحون أحذيتهم ويخصفون نعالهم في حانوته الملمون . غير أنني كنت أقبل المذاب والمقاب راضيا لو أنني تعلمت شيئا من صنعة الاسكاف ، فقد كان اللعين يرضن بها ، ولا ييوح بأسرارها إلألولديه اللذين ظالما لطخا وجهى بمادة « الرسراس » ليضحكا منى ويسليا والدهما على حسابى . أما أى المسكينة — طيب الله ثراها — فكانت تلتمس رزقها في الشوارع والطرق ، وتدخر ما تكسب لقوت أولادها وبناتها وللغرض عن أبى حين يسرق بعض النقود ليشتري بها أكوابا من الكحول الذى أحرق كبده وقضى على حياته . كانت المسكينة تطهى الطعام في بيوت التوسطين ، وتغسل الثياب وتمسح الخشب وتنظف الجدران وتبيع الخبز القديم « المرجوع » وتدبح الدجاج والأوز لليهود ولا ترفض عملا تجده فيه كسبا إلا ما كان يمس العرض والشرف . وفي إحدى الليالي جاء والدى نصف مخور ، فأيقظنا جميعا ، وبدلا من أن يقسم بيننا فطيرا أو كمكا قال لها بسمع منا جميعا :

جميلة جداً شربة القوقاز ، وعادات جورجيا الصغيرة التي يعيش فيها المسلمون والنصارى على قدم المساواة . إن الأسرة الكبيرة كآسرتنا يمكنها أن تبيع بعض أولادها وبناتها بمبالغ حسنة ، تتخلص من متاعبهم وتفتح لهم أبواب الرزق في قصور الأغنياء . ربما كانت إحدى بناتك يا امرأة تكون سلطانة أو أميرة شرقية لو أنك تمكنت من بيعها ! وكذلك أحد أولادك ...

فزارت أُمى في وجهه كأنني الأسد ، وقالت له : أصمت أيها الخبيث اللعين ، الطامع السكير ، حتى أولادى تفكر في بيعهم لتشتري لنفسك بشعهم

أن أحصل على إذن من الحياة ، ^(١) وأن أبدأ ذلك بتوديع الموتى . فلم أهتم إلى قبور والدي ، طبعاً . هذا مفهوم ، لأن أبى كان مدفوناً في قبر مجهول في جبانة المشنوقين في شرق مدينة دومسكوي . وكانت أى ملحودة في مدافن الفقراء المنبوذين بجوار جبل جراتز الشاهق الذى يقف حداً بين قوتينا وبين مدينة ليتوانيا . فأتى لى أن أهتمى إلى قبرين لحاملين من الفقراء بين عشرات الألوف من قبور الحاملين ؟

فقصدت إلى المدافن وودعتها جميعاً بخطبة وجيزة وكذلك إلى المستشفيات وإلى أما كن الدعارة والسجن ظناً منى أن واحدة من أخواتى أو واحداً من إخوتى لا يزال حياً يرزق ويتألم في بعض تلك النواحي من جهنم الدنيا وجحيم هذه الحياة . تصور أننى لم أودع أحداً في بيت أو مدرسة أو أسرة أو مخبز أو طاحونة .. أو حتى مقهى أو فندق ولكن ودعت أرواح أهلى وأشباههم في المقابر والمدامر والمستشفيات والسجون .. كان آخر يوم تركت فيه المدينة يوم أحد فقصدت إلى الكنيسة وصليت ، وبعد الصلاة دنوت من كرسي الاعتراف لأعترف ، لأننى ما زلت مسيحياً أرثوذكسياً على المذهب السُّنِّي القويم والخطوة الكنسية الاغريقية المثلث . ولكننى بدلاً من الاعتراف فاجأت القسيس المتناوم بهذا السؤال :

— قل يا ابتاه لماذا يكافأ الأشرار في هذه الدنيا بخيراتها على شرهم ويجازى الأخيار في هذه الدنيا بشرونها وسيئاتها على خيرهم ؟ قل وأوجز ، فأننى أوشك أن أخرج من هذا الدين إن لم أجد ^(١) لعله أراد أن يغير خطته فيودع موته قبل ذلك .

عندها . وبعد فترة من الزمن اشتغلت بالتمثيل فنجحت نجاحاً لم يكن في حسابى ، فقد زادت طول قامتى وحسن هيئتى وارتفاع جبهتى واعتدال أنفى قبولاً عند الرجال والنساء . وكنت أتقن — يالهمكم الأقدار — تمثيل أدوار الملوك والأمراء والرعماء والخطباء والمشنوقين . وما زلت أدأب وأنشط وأعمل بثبات وأتقن الوقوع في شرك النساء ، حتى جمعت ثروة لا بأس بها ، فأبدت عذراً إلى مدير الفرقة وعدت إلى وطنى ومسقط رأسى لانتقاذ والدتى وإخوتى ولأترك لهم ما جمعت من مال ، ولم أكن أدري أن يد الزمان لا تنفك تعمل بالتدمير والتخريب في بيوت الفقراء والمساكين ..

فقد قضى أبى نحبه في السجن إثر مشاجرة في حانة ، وسقط جدار قديم على رأس أمى وهى تغسل في بيت ، وسقط بعض أخواتى في مهاوى المار ، وتشرد إخوتى فلم أعثر منهم إلا على ولده أبله تركته في الرابعة من عمره ووجدته في العاشرة يتسول في الطرق ، فأنقذته وهو في آخر رمق وحملته إلى المستشفى ولكنه مات بين يدي . وقد تزوجت إحدى أخواتى بشراً طيباً ، ولكنه كان يضربها كل يوم بالجلد الذى يتمنطق به أو بحمايل سيفه إلى أن أورثها الجنون ، فحملها إلى ملجأ المعتوهات

أما البيت الذى كانت تؤويها إحدى غرفه فقد تهدم — حتى ذكرى يؤسنا لم تبق في مكانها . فكانت عودتى أليمة بقدر ما رجوت من هناء وفوز على المقادير ، فأدركت أن المنكود منكود وإن توهم السعد !

عندئذ ضاقت الدنيا في وجهى ، فأردت أولاً

جواباً شافياً قبل غروب شمس هذا النهار .
فرجع القسيس اللبق عقيرته وأجاب :

— لا تتمجّل يا ولدى ولا تياس ، إن أطيل
عليك الكلام ولن أعذبك بالثرثرة التي لا طائل
وراءها . إن الذي ذكرته مشاهد وممرّوف . وهو
حقيقة لا خيال ، وأمر واقع لا وهم ولا ضلال .
والجواب عليه أنه أمرٌ مجهول السبب ، لا تفسير له
عندنا في الكتب . ولم يهتد أحد من آباء الكنيسة
إلى تعليله تعليلاً حسناً يحسن السكوت عليه .

فقلت له : شكراً لك ياسيدى ! أستودعك الله
لقد كنت صريحاً معي وهذا يكفيني . وحينئذ
أيقنت أنه لا توجد عدالة في العالم مادام الاختيار في
بلاء والأشهرار في هناء والدين عاجز عن تفسير حالهما .
سافرت من المدينة التي قريتي من ضواحيها
إلى مدينة أخرى فأنفقت معظم ما ادخرت في المرح
والشراب والطعام ومنازلة بنات الهوى .

وكنت أحياناً أغشى أما كن الدعارة وأختار
فتاة فاطمهما وأسقيها وأحسن إليها بصدقة متوهماً
أنها إحدى أخواتي الصغيرات . وقد نسيت مرة
أن أسأل امرأة عن اسمها فلما قضيت منها حاجتي
(واخجلتاه) سألتها عن اسمها قالت : ايزيدورا ، وكان
هذا اسم صغرى شقية أتت فكادت أجن وشرعت
في قتلها . ولكنني قلت لها ما اسم أبيك وأمك وما
هي المدينة التي نشأت بها فأجابتنى بسرعة مذهشة
إنها تشيكوسلافية من مدينة كرا كوف مقاطعة
بيلوم ، وأيدت قولها بأدلة حاسمة . وهي وثم على خصرها
ونخذيها . فأفقت من الجنون الذي أصابني لحظة
وخرجت من بيت المرأة لألوى على أحد ولا شيء .

وأصابني الكسل في روحي وعقلي فأمسيت خاملاً
يائساً . ولم أجد ما أقنات به في مدينة بريسكا بولونيا
الغريبة فلم أستطع التسول لحسن هيئتي وقوة بنيتي
فبعت ثيابي وارتديت ثياب متشرد من أبناء السبيل
وكانت غاية في الرثالة . ودخلت على صاحب مصنع في
مكتبه ، وشكوت له سوء حالي وفقري وبطالتي
وعطلي ، وأضفت إلى ذلك أن والدي كان يعرف والده
فرق لي وعرض عليّ العمل في مصنعهم وهمت أن
أقبل ما عرض ولكنني خفت من نظام الحياة التي
بدأت أثور عليها وخشيت أن أعمل فتتحسن حالي
فأرضى عن الدنيا ومن فيها فأعدل عن سورة الغضب
التي غمرتني . فقلت له إنني قد وفقت إلى عمل سأبدؤه
بعد يومين ، وسألته أن يعرضني قرصاً حسناً لأصلح
من شأن ريتما أختّم أسبوع العمل الأول فأقبض
مرتبتي وأرد إليه دينه مشكوراً . فصدقني ودفع لي
خمسين كورونا وودعني وهمس في أذني أنه سيضع
في غرفة البواب بدلة ثياب كاملة وحذاء وقبعة
أستطيع تسلمها في المساء فشكرته . وعدت إلى باب
المصنع وتقمشت ووضعت ثيابي المزقة في مكان أمين ،
لحاجتي إليها ، وقصدت إلى أقرب حانة فأفرغت
جيبتي وملأت رأسي واحتلت على المال والطعام والخمر
والنساء ، أي أنني احتلت للحصول عليها جميعاً
ونجحت . لقد بدأت أنتقم من هذا المجتمع الجرم
الذي أصابني منه النقص ونالني منه البلاء العظيم .
لقد فتك المجتمع بأهلي ، وعصف بأسرتي ، وتسلى
على عقل أبي وقلب أمي كما يلهمو الطفل بصغار القطط
والمصافير فيخنقها وتلفظ أنفاسها وهو يضحك .
لقد كان أبي وأمّي وإخوتي يموتون جوعاً وفقرًا

ومرضاً والمراقص حافلة والمآذب قائمة والملاهي سائرة في طريقها والمغانى أهلة بالنوانى والفتيان من كل لون ونوع . لقد احتلت واختلست وسرقت ، لا لأجل السرقة ، ولكن لأجل الانتقام ... على الأقل لمرض الصغيرات التي تخيلت أنهن مولودات للشرف والعفة ولو في ظلال الفقر والفاقة . وعند ذلك وقف وكيل النيابة العامة وقال :

— هل يرى القاضى العادل أن هذا الكلام يعد دفاعاً عن التهم . إننى أطلب إسكانه . أرى أنه يهيج نفسية الجماهير من أعماقها ويوغر صدورهم على المجتمع المحترم الموقر ...

الجمهور — ينغمم ويهمهم « الحرية ! حرية الدفاع ، لقد أعطاه القاضى حق الكلام فلا يحق لأحد أن يجرمه ! »

الحامي عن التهم — إن سحب الكلام من التهم بعد السماح له يبطل الاجراءات ويحتم إعادة المحاكمة ، فهل حضرة النائب على استمداد لسباع ثلاثين شاهداً للثبات والنفي ومرافعة تطول ثلاثة أيام ؟ ثم لن يكون مناص من أن يؤذن للتهم في الكلام من جديد لأنه بنص القانون آخر من يتكلم القاضى — النظام ، استمر أيها التهم في دفاعك التهم — (يطلب كوبه ماء فيؤتى بها ويشربها دفعة واحدة)

وفي مدينة رومة اتصلت بجمعية سرية اسمها الكاربونارى أو الماكيلا أذكر الآن . وكانت خطتنا القتل باسم الفضيلة ولكن لا فضيلة هناك ولا شبهها بل القتل لأجل القتل . ولكن بعض التهورين من

أعضاء المافيا أسلموني إلى جمعية « الطراير السوداء والبراقع الخضبة » وكان مبدأ هؤلاء يدعو للقتل العنيف ، وقد قالوا لى إنهم قتلوا بطريقهم العنيفة أكثر من مليون إنسان . كنا نعيش معظم الأيام عيشة الفضلاء الأخيار ، ونخادع الناس حتى نستدرجهم ، وكنا نرغم على الزواج ونأسس العائلات فتزوجت انصباعاً لأمرهم ، ولكننى توعدت امرأتى بالدخ إذا هى حملت . ثم لجأت للمزل والانتفاع بالمعاقير والاصباغ ، حتى إذا حل موسم الجفاف ادعيت أنا ورفاقي أننا مسافرون في تجارة تسبقها رحلة بحرية وسفرة برية واجتمعنا عشرات من أشد الرجال بأساً وألفنا عصابات تجتمع سرّاً وترسم الخطط الدامية . وكنا نرابط في الطرق حيناً وحيناً في عطات السكك الحديدية وطوراً في الفنادق والمطاعم والمراقص وأندية الليل فاذا وقعت لنا فريسة من الأغنياء سطونا عليها وجردناها وفكنا بها وهتكنا من الأعراض ما هتكنا ونهبنا من المال ما نهبنا ، ثم ذبحنا من استطعنا أن نذبح من الرجال والنساء والأطفال والجند والتجار والمثلاث والمرضى والأطباء ، وكنا نسرق ونقتصب فرادى وأزواجاً ، ولكن لا تقتل إلا أفواجاً لأنه أنقى للريبة وأبعد عن الشبهات

النائب — هل يتكرم التهم بأن يوضح الأسماء والأماكن والتواريخ مساعدة للعدالة وخدمة للفن وإكمالاً للحديث الذى يرويه إذا شاء

التهم — لا أحب المقاطعة . ولكننى أجب بأن شرفى لم ينزل إلى درك التجسس على زملائى

الأقدمين ، كما انحط شرف بعض الموظفين
(ضحك وتهد وشهيق من الجمهور)

وكنا نقتل بالشنق بخيطة من حرير أو قطعة
رقيقة من القماش المفتول ، وكثيراً ما كنا نضحك
ونلهو وزرقص ونحن نزهق أرواحهم ثم نواربهم
التراب في قبر مشترك كقبور الجنود بعد المواقع
الكبرى ، هكذا قانون جمعيتنا المحترمة بعد تقاليد
الحرب العظيمي

القاضي — إنني أقترح على التهم أن يغير التشبيه
إذا شاء ولا أرغمه على شيء فهو حر في طريقته
الحامي — وأنا أنضم إلى المحكمة في هذه الرغبة
ولذا أرجو شطب الكلام بعد لفظ « مشترك »
من محضر الجلسة

التهم — موافق . كنا لا نعاقب مطلقاً لأننا
نبذل كل الجهد في إخفاء معالم الجرائم ، ولم يكن
أحد من الشرطة أو المحققين أو رجال البحوث
الجنائية يستطيع أن يلقى القبض علينا ، لأننا كنا
مواطنين متميزين بالشهرة الطيبة والفضيلة ، فإذا
حدث أن اعتقل أحدهم خطأ أو نتيجة لمهارة أحد
رجال القانون ، فإن الجمعية تتأزر تواراً في تخليصه
يبذل النفس والنفيس من مال وهدايا ، على أننا لم
نكن نقتل لأجل القتل ، ولكن كنا نقتل لأننا
نقابل المثل بالمثل ونقتص من المجتمع الذي قضى
علينا وعلى أهلينا وأحبابنا . فانه لم يكن يقبل بين
ظهرانينا إلا موتور أو مظلوم أو ثا كل أو مخدوع
من الرجال أو النساء ممن فقدوا ثقتهم في العدل
والرحمة والوعود العذبة والأمانى المسولة . لقد

هدمنا المجتمع ونحن على حسن النية ؛ فبينما أنفسنا
على سوء النية ثم شرعنا نهدمه . لقد كنا أخياراً
خاربنا فصرنا شراراً لنثار لأنفسنا ، لقد تنمرنا
حقناً للدماء الباقية

غير أنني في نهاية الأمر ضجرت من قتل الأفراد
واقننت أن الأولى والأفضل والأسرع والأخلق
والأليق والألبق أن يكون القتل عاماً فانفلت من
روما بعد أن أتقنت الخطابة والكتابة يبضع لغات
كلروسية والفرنسية والايطالية . وقصدت إلى
بطرسبرج في عهد القيصر نيقولا الثاني . وكنت
أجيد التكلم بكل اللجات . وقد قيل لي إن تعاليم
الفوضي لا تتفق مع العقل وإنعاشي مع الجنون ،
ولا تستمين ببرودة الكهولة وإنما تريد حرارة
الشباب ؛ وإن أشد مخاوفها الاحجام وأشد مضلاتها
التروى . فهي لذلك تحشى العقلاء ولا نظمئن للرزاة
ولا تسكن للمجادلة ، يجب أن يكون خدامها عمياً
حتى لا يبصروا ومجانين حتى لا يحجموا ولا يفرقوا ،
فهي لذلك لا تقع إلا على ثائر كره الانسانية فأراد
أن يطمئنها في قلبها ورأسها ، أو مفلوك بطاب النفي
بعد الفقر . وكنت من الفريق الأول . فلما عشت
روحاً من الزمن في عاصمة روسيا القديمة اتخذت
خاتمة من صفوف الثوار اسمها ناديا وكانت امرأة
نصفاً تباخ الثلاثين من عمرها ، وكانت كبنات جنسها
تتقن سبع لغات على الأقل فأخذت تذكر لي أسماء
رجال لم أسمع بهم من قبل وكانت كهمي في الخلعة
والنصابي فلموت بها وأهملت تعاليمها . وكنا نعيش
على مائة روبل تدفمها لنا الجمعية للسرية « بلاندسكاي

نبراسكا» مشاهرة . وأخيراً ألحقته باتباع زينون وكنت أظنه زعيماً روسيا خطيراً فإذا به فيلسوف يوناني . وكانت ترغمني على أن أستظهر بمض النبذ التي تدعى أن حياة التأثير في روسيا بدونها مستحيلة من ذلك قولها « ليست القوانين نتاج الحكمة من أجدادنا ، وإنما هي وليدة عواطفهم وجبنهم وعصبياتهم واطماعتهم ، وإن العلاج الذي نستمدّه من القوانين لهو شرٌّ من الداء الذي تدعى هذه القوانين شفاءاً منه ، فإذا أبطلت هذه القوانين وأقفلت هذه المحاكم وترك الفصل في النزاعات للمراجيح من الناس ، نشأ عن ذلك العدل الحقيقي » أو كقولها « الامتلاك هو السرقة بعينها » . أو هذه النبذة المعقدة الملتوية « إذا رجحت عقول الناس وتهدبت نفوسهم حتى يستطيعوا أن يتبعوا غرائزهم الطبيعية فلا تعود بهم حاجة إلى المحاكم ولا إلى الشرط والمعابد والأديان ، ولا إلى استعمال السكة والنقود وإنما يستمضون عن الأخيرة ببادل العوارف والأعطية »

ولكن هذه المذاهب لم تكن تروقني لأنني لم أفهمها بمقل وإغاصت بها بقلبي وروحي معتقداً أنها تعينني على الانتقام لأهلي . كان نزع أموال هؤلاء الأغنياء جميعاً وإغراقهم في بحر من الدماء لا يكفيني فداء لأبي وأخي وإخواني ، ولا سيما أخواني البائسات . لقد كانت عاطفة المائلة قوية غاية القوة في نفسي ، ولهذا أردت أن أتزوج من هذه النائرة نادياً اتندمج معي أكثر من اندماج الحليمة الإيطالية . وفي اليوم الذي سمعت فيه على

عقد زواجهما اكتشفت خيانتها ! فقد كانت تخلو إلى طالب يهودي اسمه عمانوئيل كونسكي يقطن في نفس المنزل الذي كنا نعيش فيه . فلما ظهرت على أمرها كتمته وعدلت عن الزواج بها . وذكرت لها بعد بضعة أيام أنني مسافر إلى الجنوب إلى ناحية أوديسا ، نفاذاً لأمر كازميرسكي رئيس الشعبة التاسعة التي أُنتمى إليها فقالت لي « على بركة الله أيها الرفيق ! » كأنها كانت تنتظر فراقى بفارغ الصبر ، وهي تعلم أن السفر بين بطرسبرج وأوديسا لا يتم إلا في ثلاثة أيام وليليتين ، فقلت لها : ألا تمدين لي حقيبة ثياب أو طعاماً في خرج كالأخراج التي يحملها الموحيك ؟ فقالت لي وهي متمجلة وقد زاغ بصرها « يمكنك أن تدبر أمورك بعشرين كوبيك أيها العملاق الثقيل » ووضعت في جيبتي قطعة صغيرة من النقود الفضية فقلت لها وأنا أقبلها نفاقاً وودت لو أضرق وجهها بأنيابي : « لا زاد ولا غطاء ! أترين أنني أموت برداً وجوعاً في خدمة الانسانية ؟ » فقالت « إن الشعبة التاسعة تمد لك أسباب الراحة ! هيا أسرع فقد حان موعد القطار ! » أيها الداعر المحرومة من الرجال قبل أن تمرقني ؛ لقد التقطتك من الطريق وغذيتك من لحمي وودي وعرق جيبتي وخاطرت بالحياة لأجلك . أهكذا أتبيميني ببيع السماح لأجل شهوتك الصاخبة . ألسنت رجلاً ؟ أم دأبك التغير والتبديل كحمارة الوحش التي لا تقنع بقطيع كامل العدد والعدد من الذكور المتهاجة ؟ . هذا كلام العقل الباطن تبادله ونفسي ، وقد تخيلت كل شيء يحدث في غيبتى . ثم نطق العقل الواعي قائلاً :

ليموتني . ووضعت أذني على خرق الباب فسمعت أصواتاً وحركات وتأوهات وهمساً، فنظرت فرأيت في ضوء المصباح الكهربائي ما أفتننى بأن المرأة في أحضان اليهودى ولحت لحسن الحظ نافذة مفتوحة فعملت أن الوصول إليها سهل من السطح فصعدت إليه وصبرت عليهما حتى أخذتا نصيبهما من المتعة والنوم وهبطت عليهما كالتضاء من النافذة وذبح الماشق اليهودى من الوريد إلى الوريد كما تذبح الشاة، ثم أيقظت ناديا ووضعت فوهة المسدس في فمها. فلما رأت دماء ممشوقها الطالب العبرى قالت لى: أنت الذى قتلته؟ قالت نعم. قالت حسناً فعلت. إننى استدرجته لذلك، فأنا أمقته وأحب أن تفعل به ما فعلت من زمن ولكنى لم أتمكن من اقناعك .. اخلع الآن ملابسك ونم في حضنى حتى الصباح. قلت: وماذا نفعل بمحنته؟ قالت: أترك الأمراندييرى، ولكنهم لم تنته من حبك تلك الحيلة حتى أفرغت المسدس في حلقتها وغادرت الدار كما دخلتها . وفرت إلى ساراتوف على نهر الفولجا واندست بين الملاحين وعاشرت الموحيك في المولد الكبير في تيجنى نوفجورود^(١) وتعلمت أغانيهم وأنشدت مواليهم وقصائدهم وأدوارهم، وأتقنت أصواتهم، وغيرت اسمى وعقيدتى طبعاً وجمعت نفسى من قازان . وذقت أنواع الجوع والخوف والفقر، وكانت أشباح الأحباب والأعداء والقتلى تظهر لى فى نوى وصحوى. وتعلمت بكتاب «بيت الموتى» لحدانة عهدى بالنشر ودخات الكنيسة وتعلمت بالنساء أيام الأحد وأنا كافر بملة القسيس

حسن ما تقولين يا حبيبتي ناديا . أستودعك الله ! وسارعت بالخروج وطرت على جناح السرعة إلى حى آخر من أحياء العاصمة وقضيت ليلتى في أحضان امرأة مذنبة . وقبل أن أضطجع إلى جنبها فى الفراش الغريب الذى لم يألفه بدنى صليت صلاة قوية وصلت المرأة المذنبة إلى جانبي راكعة على ركبتها . فسألها : إن وجدت زوجاً كريماً يقوم بأودك ويكفيك مؤونة الدارة أفتسكينين إليه ؟ فأجهشت بالبكاء وقالت : أسكت أيها الرفيق ولا تذكر هذه النعمة المقدسة فى هذا المكان الملعون . إننى كلما أذكر الطهر والمغاف والقناعة أكاد أجن شوقاً إليها .

قلت « فإن وجدته وأحسن إليك وببنى بك تخوينينه مع أول قادم ؟ فوضعت يدها على فمى، فقلت : وإن فعلت فما تستحقين ؟ قالت : أن يقتلنى وأن أذهب بلا دية ، وأن يباح دى . فقهممت حتى أمسكت بجنبي ، وكادت المرأة تظننى مجنوناً . لقد حاكمتها أى العائبة على طريقة قومها وبلدها ومذهبها بعد أن صدر الحكم على لسان امرأة من قومها ومن طبقها ، ولم أطق صبراً ، فأفرغت جيبى فى حجر البائسة المذنبة ، أعنى أعطيتها كل ما كنت أملك ، وقصدت إلى كاتم أسرار الشعبة وزرته فى غسق الليل ، وقلت له : إن الرئيس يطلب مسدساً وذخيرة فقال : أى رئيس ؟ قلت : الرئيس ٩ + ١٤

وكان هذا رمزاً الأخفى ، فأعطانى ما أطلب وقصدت إلى بيتى بعد نصف الليل بساعة وصعدت الدرج فى الظلام الحالك ، ولم يكن الدفورنيك^(١)

(١) بالروسية المدينة الجديدة مشهورة بالمواليد والأسواق .
(٢)

(١) بواب الدار وجانبيها وجاسوسها

ولكن لا تنسوا أنني أنا الذي أمرت بدفنها بهذه الجواهر ، وكان يمكنني أن أستحوذ عليها ، لأنه لا قانون في الأرض ولا في السماء يحتم على الورثة أن يزينوا صدور الموتى ونحورهم وأصابعهم بالجواهر ، ولكنني فعلت ذلك زهداً في جواهرها ، وكنت في أشد الحاجة إليها ...

أقصد نسبت الشرطة لي أنني تعديت على جسمها بفعل قاضح ، أفيمثل هذا الزعم ؟ إنها وشاية دينية ونعيمة قدرة ، ونبأ كاذب متمغن لا يصدر إلا عن قلوب متأكدة بدود الحقد والوقيمة . هل أعتدى على هيكل عظمي وجسد لحقه البلى في وحدة الليل البهيم ؟ نعم « الهاوية » قصة خيالية ، ولكن الصندوق الخشبي المنعش المغلق اعتبروه خزانة ملأى بالجواهر ، لا سرير عروس معدة للزفاف ، إنني أختنق . أموت . اسحقوا لي بالجلوس لقد انتهيت .

القاضي — إجلس أيها التهم (يجلس وينثنى عنقه من التنب) أيها المحلفون ! لقد سمعتم دفاع التهم ، لست في حاجة إلى تلخيصه ، أو ترجيح إحدى الوجهتين . إن وجهه الاتهام قوية لا ريب ، ولكن التهم أظهر ضعفها . لا تصفوا إلى القسم الأول من دفاعه . قد يكون اعترافاً خالياً لمقل عصفت به المصائب فانهدت قواه ، وقد يكون مظهرًا من مظاهر الجنون المفاجيء . أنه بلا ريب رجل نال منه حوادث الدهر نيلاً كبيراً حتى اختل توازن تفكيره .

إن سجل سوابقه مفقود فلا يمكننا أن نعلم إن كانت قصته صحيحة أو كاذبة . أما الجرائم التي نسبها

لجلجل صوتي كأحسن ما يكون منشداً يترنم بمزامير داود ، ولكن القسيس فاجأني وأنا أسرق من صندوق النذور فطردوني فخرجت إلى المدينة وأخذت أغني في الشوارع فسمعتني أولجستاً نوماً^(١) الممثلة المغنية فمشقت صوتي وأحببت جسمي فوهبتني بدنها وعلقتني فيها واشترتني من نفسي ، فصرت معشوقها وسيدها فأظهرتني على مسرح أوليانوف بيطرسبرج ، وقد رأيته رئيس الشرطة في دور حلاق اشيبيلية « فاشتبه » في لأنهم كانوا يبحثون عن ذابح ناديا وحبيبها ، فصغته أولجستاً نوماً ، وقالت له أنت مجنون ، يا برتريف ! هذا أخي في الرضاع ، إنه لم يغادر قصر أبي في تسار كوي تسياو ، فكيف تهمه بالتشرد والقتل ؟ فقلت لها : عفواً يا أختاه ! لا تصل بك الحاسة في الدفاع عني إلى هذه الدرجة ، إنني قاتل هذه المرأة ومعشوقها حقاً . تخدق في الشرطي ، وفتح فيه لينطق فقلت مقهقها : ولكن في المنام !! ...

وبدون عشق أولجا لم تنبسم لي الدنيا فوصلت إلى مسارح نيويورك وباريس ولندن وميلانو ، ثم عدت إلى روسيا ، وكانت أولجا قد أصيبت بالسل وعجزت عن الغناء ففقدت أنا الآخر صوتي كما حدث لتريلبي عندما ماتت سفانجيلي فجأة^(٢) ، وعدت إلى الفقر ومقاساة الجوع حتى قبلت أن أمثل لقاء رغيفين من الخبز وقطعة من اللحم وقدر من الفودكا . إن التهمة التي وجهت إلي هي أنني نبشت قبر أولجا ستانوما ، وأخذت بمض حلبيها التي ترينت بها قبل دفنها . إنها الجريمة كبيرة حقاً ،

(١) هذه بريتا دونا وسوبر أنوتونييت أثناء الحرب

(٢) Trilby تأليف دي مورييه من أروع القصص الحديثة

الجمهور - ليحيى العدل ! الرحمة فوق العدل !
يسقط الظالمون .. المجتمع يحتج . ليسقط الشرطة ..
اليهود .

القاضي - (يا حارس ! اطلق سراح المتهم)
وأخل قاعة الجلسة من جميع النظارة !

الحارس - ايزيدور فيدوروف، انهض تيقظ !
لقد حكم القاضي ببراءتك (يلمسه بلطف ثم يهزه
بسنف ثم ينظر في وجهه ويحس يده وصدره) إن
المتهم لا يتحرك . لقد فارق الحياة وهذا الزبد في شدقيه
القاضي - (يرفع قبعته وينهض) رفعت
الجلسة وانتهت القضية !

الجمهور - (يرتل : أيها الرب الرحيم تقبل
روحه في ملكوت سماواتك فقد كان أعذل من
كثير من الكبراء) .

محمد لطفي جمعة

إلى نفسه متطوعاً فقد تكون وقت ولم تظهر للعلأ
للتحايل في إخفاء معاملها . كما يمكن الافتراض بأنها
لم تقع إلا في دائرة ذهنه المربض فلا تتخذوا منها
سنداً عندما تنسحبون إلى غرفة المداولة . لا تسمعوا
صوتاً سوى صوت ضائركم . ولا تذكروا إلا تهمة
واحدة وهي التي يحاكم من أجلها هذا المتهم . هل
نبش قبر صديقه أو لجاستانوفاً ليسرق جواهرها
أو ليعتدي على حرمة الموتى ؟ إن كانت الجريمة لسرقة
الجواهر فالجواب على الأسئلة جميعها بالنفي ، وإن
كانت غايته انتهاك حرمة المقابر فالجواب على الأسئلة
الأساسية بالاثبات . الله يمينكم

رئيس المحلفين - لسنا في حاجة إلى المداولة .
جوابنا على جميع الأسئلة بالنفي
القاضي - حكمت المحكمة ببراءة المتهم والافراج
عنه فوراً ، إن لم يكن محبوباً لسبب آخر

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهي : الحاج شلي . الاطلال
أبو علي عامل أرتست . الشيخ عفا الله
الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء
القصة وتطورها

من جميع مكاتب الفطر الشهيرة

« كتاب فرعون الصغير وقصص أفرى »

يظهر في نهاية العام

رفائيـل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

التمن ١٢ قرشاً